مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

تهافت القراءة الأيديولوجية لتجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي وانعكاساها على الحاضر

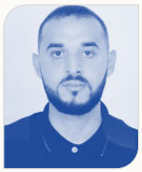

د. إلياس الهاني
دكتوراه في الفكر الإسلامي والدراسات الحضارية
جامعة محمد الأول – وجدة
المملكة المغربية

مُلَخّص

تعتبر تجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي من أغنى التجارب الحيّة التي شهدها القرن العشرين لانتشال الأوضاع الحضارية التي عرفها المغرب حينئذ، وقد تميزت برؤية ناضجة للفكر والسلوك تمكّن الخطابي من خلالها لتجاوز جملة من التحديات والمعيقات السياسية والاجتماعية والفكرية التي أخضعت البلاد للمركزية الأوروبية وصنعت لنفسها تجليات تحديثية شملت مختلف المجالات، إلا أن هذه التجربة لم تسلم من محاولات القراءة الأيديولوجية التي فرغتها من مضمونها الحضاري وتضعها في سياق المواجهة واحتداد الظرف والزمان والمكان والسياق عبر استحضار جملة من المواقف وإلصاقها بهذه التجربة، وهو ما يجعل من الرجوع إلى تلك المواقف والتفصيل فيها على رأس أولويات البحث الحضاري لتجربة الخطابي. ومنه ستحاول هذه المقالة رصد بعض المواقف التي تنازعتها بعض القراءات الفكرية، والتي كان لها الأثر في حاضر المغرب وفي المنطقة التي انطلقت منها تجربة الخطابي عبر التوسل بالمنهج التاريخي ووضع الحدث في سياقه، وذلك قصد تجاوز معضلة الفهم التي تعرضت لها مواقف الخطابي تجاه بعض الحيثيات، والتي كانت سببا مهما لعدم الإفادة من تجربة الخطابي؛ إذ بقيت عالقة تحتاج إلى نفض الغبار عنها، ومن هنا يأتي البحث الاضطراب الحاصل للوصول نحو الوضع الطبيعي لمعرفة السياقات المرتبطة بها .

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٥ أكتوبر ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ١٦ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الكولونيالية الاستعمارية؛ الجمهورية الريفية؛ القانون الدولي؛ المخزن؛ فرنسا

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.346736

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إلياس الهاني. "تهافت القراءة الأيديولوجية لتجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي وانعكاساها على الحاضر".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١٧١ – ١٧٨.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: elhani91@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّأرِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

لا شك أن للماضي تأثير قوي على حاضر اليوم إن بصورة أو بأخرى؛ فهو الذي يجسد معالم الحضارات القائمة، ويعكس طبيعة ما تفرزه من قضايا في بعدها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وإذا أخذنا نموذج المغرب كأحد أهم الدول التي شهدت عبر تاريخها العريق والممتد عبر قرون من الزمن صناعة أحداث خاضت فيها، سنجد أن محطات تاريخية تركت بصمة قوية حاضره على شاكلة التجارب الإسلامية والأندلسية وغيرها من الحضارات التي يعتبرها الدستور المغربي لسنة ٢٠١١ جزءًا من هويته وواقعًا يتجسد في أنماط متعددة من الوظائف الثقافية والفكرية والعمرانية، ويتشكل عبر سيرورة من الوقائع والمحطات، ولم تعد مجرد ذكرى أو مجدًا تليدًا وإنما حاضرًا هوياتيًا، وهو ما نص عليه تصديره الذي جاء فيه أن: «المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيدة كاملة، متشبثة بوحدتها الوطنية والترابية، وبصيانة تلاحم وتنوع مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية»، فحضور هذه الأبعاد الحضارية في أسمى قانون للدولة، سيفرض أنماط مختلفة من السلوك مما يعتبر الخوض فيه من الأهمية بمكان؛ ذلك أن ما تضطلع الأبحاث والدراسات للتنقيب في هذه الأبعاد في شكل تجليات ثقافية يتم الاعتقاد بها وبناء كل ما يشكل هويتها.

وبالنظر إلى مسيرة محمد بن عبد الكريم الخطابي باعتباره أحد أعلام المغرب الحديث الذي حاول أن يخرج بلده من شرنقة المركزية الأوروبية، ويجسد فيها معالم الاستنهاض الحضاري، ويرسي فيها قواعد بناء الإنسان وإخراجه من وهدة التخلف وفق مقومات العصر الحديث، ما جعل الكثير من مناصريه وكذا مناوئيه يفردون مساحات واسعة للحديث عن هذه الشخصية الرائدة وإبراز معالمها، إلا أن ذلك لم يحل دون السقوط في تحويرها لمختلف النزوعات الأيديولوجية الضيقة، وكان لهذا الأثر الكبير على أحداث الحاضر التي شهدها الريف المغربي، مما يحتم إعادة النظر في الكثير من الأطروحات التي تبنتها جهات وشخصيات مختلفة بناءً على ما ارتكز في أذهانهم من مغالطات لا تمت بمشروع الخطابي ورؤاه التجديدية بصلة، وهو الأمر الذي سأحاول إبرازه في هذه المقالة من خلال اختيار بعض المفاهيم واللحظات التاريخية التي برزت في الأحداث الأخيرة التي شهدتها منطقة الريف؛ وهي (الانفصال، الجمهورية، علاقة الريف بالمركز)، وقد ارتبطت هذه المفاهيم بالخطابي، إلا أن دراستها وتحليلها ستوضح أنها لا تكاد تعدو أن تكون من آثار القراءة الضيقة لتجربته.

أولاً: مفهوم الانفصال بين الصناعة الأجنبية والتحرر من الاحتلال

برز مفهوم الانفصال في الآونة الأخيرة بشكل لم يسبق له مثيل، بسبب ما تشكله التهديدات التي تشهدها الكثير من الدول جراء دعوات تجدد بين الفينة والأخرى مطالبتها بكافة السبل والوسائل للانفصال الترابي عن الدولة الأم، وتحويل الجزء المنفصل إلى كيان مستقل، على غرار ما شهدته دولة السودان، ولم يكن المغرب بمنأى هذه الدعوات؛ فما زالت بعض الجهات تترنح لنيل مطلب الاستقلال عن دولة المغرب الأم، وبالرجوع إلى اللحظات التاريخية الحرجة التي سقط فيها تحت نير الاستعمار، وبعد أن حاول محمد بن عبد الكريم الخطابي طرد الاستعمار ومجابهته بكافة الوسائل والسبل القانونية لم يسلم الخطابي من محاولة إلصاق تهمة الانفصال به وبتجربته من طرف الاستعمار، وهي دعوى قديمة استغرب شيوعها وانتشارها أثناء تواجده بالريف عبر جملة من الرسائل والتصريحات سواء كان ذلك بالطريق المباشر الذي يتولاه هو بنفسه أو بالنيابة التي كان بعض الشخصيات يدلون بها في المحافل الدولية والمنتديات العامة باسمه؛ ولذا ما طفق الخطابي يحذّر من مغبّة ما تلقيه الدوائر الاستعمارية وما تروجه من دعاوى زائفة قصد تشويه اليقظة الحضارية التي أبداها الخطابي.

وفي الرسالة التي وجهها للمغاربة سنة ١٩٢٥ ما يجلي بعض الأراجيف التي يتعين دحضها ومقاومتها من المغاربة لأنها محض افتراء؛ وفي هذا يقول: «إن كل ما ترمينا به الأعادي، وتلصقه بجانبنا من أن الريف جماعة ثائرة مشغولة بالنهب والسلب والعمل على ما يخالف الفضيلة، فكل ذلك محض زور وبهتان، وأرانا في غنى عن إقامة الدلائل لكم على تصحيح دعوانا، ورد مفتريات العدو، لأن ذلك متضح لدى العالم ومشهود، وزيادة على ذلك فإنه لا يخفى على العارف، وحتى غير العارف، ما تكنه صدور الأعادي، وما تبديه دائمًا نحو الإسلام والمسلمين الذين خذلتهم ببعضهم، وفرقت جموعهم إلى أن صاروا طرائق قددا، وهم لا يزالون عاملين على ذلك، حيث وجدوا ذلك أسهل طريق للوصول إلى مقاصدهم وأغراضهم، علما منهم بأن الاتحاد شيء عظيم، وأن المسلمين مهما اتحدوا، يصعب إخضاعهم، وخصوصًا في الحالة الراهنة التي أشرف العدو فيها على السقوط[١]».

ولم يكن مفهوم الانفصال الذي تولت نشره الإدارة الفرنسية سوى امتدادًا لسلسلة الاستهداف الذي تولته المركزية الأوروبية التي راحت في إرسال بعثاتها للمغرب تتنصل بين قبائله لجمع المعلومات والقيام بمسح المناطق التي تحتوي على ثروات باطنية مهمة تساعد أوروبا على رفاهية أبناءها؛ فالناظر في تاريخ المنطقة يجد أن هذا المفهوم تسرب بعدما اكتشفت القوى الأجنبية مدى الثروات الباطنية المعدنية التي تختزنها هذه المنطقة، فراحت تروج في كتاباتها التي سهّلت الأمر للاحتلال الأجنبي بكون قبائل الريف منفصلة عن أي دولة ولا ولاء سياسي لها، وهو ما يسمح حسب زعمهم بملأ هذا الفراغ؛ فقد جعل أوجيست موليراس قبائل الريف منفصلة عن حكم السلطان، فقال: «ولم يكن الريف خاضعًا أبدًا؛ فهو يشكل جزءا من بلاد السيبة الشايعة أي المتخلى عنها من طرف السلطان[٢]»، وهو نعت درج عليه بقية الغزاة الذين أوهموا الأوروبيين بكون الريف منفصلاً عن باقي الأراضي، ولا يشمله حكم المغرب، وقد أغرق موليراس كتابه بالأوصاف وإطلاق النعوت التي تجرد الريفيين من أي فعل حضاري، بل وأمعن في إلصاق كل تهمة خِلقية أو خُلقية مبررًا للدول الأجنبية تدخلاتها ونشرها لما تحسبه تحضرًا وتقدمًا.

وهو نفس ما قام به أنخيلو كيريلي في مونوغرافياته لقبائل الريف؛ حيث جرّد القبائل من تبعيتها لأرضها؛ فوصف قبيلة بقوية أنها: «مستقلة عن سلطة المخزن المغربي، ولا تخضع القبيلة لأي تدخل سواء بشكل مباشر أو غير مباشر من طرف سلطان المغرب[٣]»، وهي مغالطة تاريخية تكشفها حجم الأحداث التي أظهر من خلالها الريفيون مدى التشبث بأرضهم وولائهم التام للواجبات التي يحتمها عليهم نداء الوطن وتفاعله الحضاري؛ فقد شهدت منطقة الريف ارتقاء حضاريًا حيث نشأت أولى بواكير الحضارة الإسلامية بالغرب الإسلامية بمنطقة النكور التي دامت قرونًا من الزمان أبدع فيها الناس في شتى مناحي الحياة وقامت بأدوار طلائعية في ازدهار العلوم والفنون، ولن تكون أرضًا جرداء كما يصفها الأجانب؛ إذ تكونت إمارات أخرى تستأنف نفس الأدوار على غرار إمارة بادس وغساسة وتازوظة وغيرها، ومع بداية ظهور العلويين وتقلدهم للحكم، استعان بهم ملوكهم لتحرير البلاد من الاحتلال البرتغالي والإسباني، ليصفهم محمد الأول بـ: «ريف الفرسان، وصقور الفيافي والفجاج»، كما ظلّ هذا الانتماء إلى العصر الحديث عند بزوغ نهضة الخطابي بالريف؛ ولم يخطر ببال أحد إلا ما حاولت القوتين المحتلتين فرنسا وإسبانيا الترويج له من كون الخطابي يريد أن ينفصل عن المغرب بعدما استطاع أن يهدد وجودهم الاستعماري وكاد أن يقضي عليهم، فلم يجدوا من بد تزوير التاريخ وتشويه سمعته بأشنع النعوت وأقبحها، وهو ما يتلقفه البعض في العصر الحديث لترويج نفس الأسطورة، وما هي في الحقيقة سوى إعادة تدوير لما رددته الدوائر الكولونيالية الاستعمارية.

أما الخطابي فقد سعى بكل جهد للانفصال على المستعمر الأجنبي وبناء المغرب؛ ففي نداءه الموجه للمغاربة سنة ١٩٢٥م يلخص فيه هدفه من قيامه بالأمر، ويوجزها في كلمات ذات دلالة ومعنى عميق؛ إذ يقول: «أيها المراكشيون، إننا لا نريد من كل هذا أن نتسلط عليكم أو نخرق عليكم عادة كما يموه عليكم العدو أو كما تتوهمون أو غايتنا الملك والاستواء على عرش المغرب،

كلا، وإنما غايتنا الوحيدة ومقصودنا المنشود هو طرد الأعادي من تراب المسلمين والوصول إلى إصلاح شؤوننا ماديا وأدبيا، لنحيي بذلك ما اندرس ونجدد مجد الأسلاف، وما ذلك ببعيد على رجال المغرب ومفكريه إن قاموا قيام رجل واحد، وعملوا ما يحقق هذا الأمل بالقول والفعل[٤]»، وهو تعبير يجسد ما اعتمل الخطابي القيام به من عملية الاستنهاض التي جعلها أس أهدافه، إلا أن القوى الاستعمارية أبت سوى إجهاض هذه الإرادة وإخضاع المغرب بسلطانه وشعبه وإصلاحييه تحت حمايته الاستعمارية التي أراد الخطابي الانفصال عنها، والتعامل مع كل الأمم والشعوب بندية ومساواة بعيداً عن منطق الخضوع والقوة والحرب؛ فيقول في ذلك: «إن قصدنا وغايتنا هي غاية القبائل الريفية، وإننا لسنا بمتسلطين على هاته القبائل، وهو الدفاع عن كياننا وحقوقنا معتمدين على حقانية مسألتنا ومطالبنا التي لا ينكرها أحد، وقد أعلنا هذا لإسبانيا قبل حادثة أنوال وبعدها وجاهرنا بعد الحادثة بطلب الانفصال عنها ورفض حمايتها بالكلية[٥]».

وهو ما لم تستسغه الإرادة الاستعمارية؛ فراحت تؤلب الرأي العام المغربي والأوروبي بأن الخطابي ما قَصَدَ جراء مناهضته للسياسة الاستعمارية الأجنبية سوى الانفصال عن المغرب بعد إدراكها للمرامي الحقيقية للخطابي الذي يعبر الجنرال ليوطي في مذكرة له سنة ١٩٢٥ بقوله: «إن هيمنة عبد الكريم على كل قبائل منطقتنا التي لم تخضع لنا بعد، وذيوع صيت وهيبة هذا الزعيم الريفي، أصبحا مقلقين لنا، ولن نسمح له بأن يكون مركز جذب لكل من يطمح في استقلال الغرب الإفريقي المسلم[٦]»، الأمر الذي عزّز القوى الإمبريالية الفرنسية للاتحاد مع إسبانيا لإسقاط تجربة الخطابي ووصمها بأبشع النعوت والأوصاف مدركين أن إسقاطها لا تتم سوى بتشويه معالمها بعد أن بدت نموذجًا رائدًا لَمَنْ رام استنهاض بلده وإصلاح شؤونه، وما تهمة الانفصال إلا حلقة ضمن سلسلة طويلة من النعت الذي تعرض له الريفيون لاستعباده وإبقائه مرهونا للشركات الرأسمالية ولنهب الدول الإمبريالية.

ثانيًا: فرية الجمهورية الريفية بين ضرورة الإمارة لمناهضة المحتل وإفرازات القانون الدولي الحديث

لم يكن الخطابي بالرجل الذي تغيب عنه التحولات الكبرى التي حصلت في العالم الحديث؛ إذ مكنته إقامته بمليلية من استيعاب النظام الدولي، علاوة على اطلاعه الواسع على تاريخ الدول وكتب القانون، فقد أدرك من خلالها أن العالم يسير نحو إرساء قواعد يحتكم إليها تشكل بمجموعها نظاما تسري عليه التحديات وتحتكم إلى منظومته دول العالم، وقد أفرزت انتهاء الحرب العالمية الأولى تأسيس عصبة الأمم التي توجه إليها الخطابي بالرسائل والخطابات المفعمة بالمفاهيم التي انتهجتها الدول الحديثة من قبيل الاستقلال والجمهورية والسلام والبرلمان والنيابة والحرب والاتفاقيات، وذلك لمطالبة الدول عن كفّ الإسبان عن الاحتلال الذي لا وجه لقانونيته الذي تستند عليه؛ فقد كشفت الوثائق والدلائل التي كان الخطابي يستعملها وطبيعة الأسلوب وقوة الحجج التي كان يوظفها أن مخرجات مؤتمر الجزيرة الخضراء المنعقد بإسبانيا سنة ١٩٠٦ والذي ترجع إليه إسبانيا لشرعنة زحفها على الريف محض غزو واحتلال ونهب للثروات، وبموجب نظام الحماية الذي أبرمته مؤسسة المخزن مع فرنسا وإسبانيا، والذي أبانت السنين عن كونه احتلالاً ولم يأخذ من الحماية سوى الاسم؛ إذ يوجه الخطابي نداءه لعصبة الأمم سنة 1922م قائلاً: «يعتقد الإسبان بأن أوروبا قد عهدت إليهم بمهمة إصلاح الريف وتمدينه، غير أن الريفيين يتساءلون: هل يتمثل الإصلاح في تدمير مساكنهم باستعمال أسلحة محظورة، أم قوام هذا الإصلاح هو التدخل في شؤونهم الدينية، أو اغتصاب حقوقهم؟[٧]».

وهو الأمر الذي بدا في رؤية الخطابي مغايراً لمفهوم الحماية الذي يتجسد في صيانة الحقوق وحفظ المصالح ومساندة الشعوب المتخلفة لنهضتها، ما جعل أمر الاصطدام مع القوى الأجنبية ضروريًا لحفظ المنطقة من سيطرة الأوروبيين، ولا شك أن مقاومة الاحتلال الأجنبي قد أثبت فعاليته وجدواه في حالة التنظيم الجيّد والمحكم للأرض ومقدراتها وتهذيب الإنسان من

العادات التي تكبل طاقاته وتنوير فكره نحو الارتقاء، مما أثمر معه اعتبار الخطابي زعيمًا وقائدًا لقبائل الريف بعد توحيدها وتنظيمها وتجريدها من كل التطاحنات والنزاعات الداخلية، وتم تنصيب الخطابي أميرًا بما يوجبه هذا النظام من تدبير حياة الناس وحمايتها والرفعة من شأنها، وهو نظام إبداعي في دلالته يتم من خلاله تنصيب أمير تجسدت فيه صفات القيادة وإصلاح شؤون الناس على غرار ما شهدته تجارب احتدمت فيها الصراعات من فترات سابقة كإمارة القلال بفرنسا الحالية التي نشأت لحفظ كيان المسلمين بعد تكتلهم وحسن تنظيمهم، وكذا إمارة الأندلس بإسبانيا الحالية التي ازدهرت في فترة وجيزة من الزمن وكانت مصدرًا أساسيًا لنهضة أوروبا، على نفس المنوال شهدت الضفة الجنوبية نشوء كيانات قامت بأدوار حضارية متعددة وعلى رأسها إمارة النكور في شمال المغرب وهي أول إمارة مستحدثة بعد دخول الإسلام إلى المغرب الأقصى وقد بدت نموذجا للارتقاء بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ولا يعني بالضرورة وسم الإمارة بكونها نموذجًا قروسطيًا ماضيًا وإنما نجد في العصر الحالي من تسمى بهذا النظام وهو في أعز ازدهاره كإمارة قطر وإمارة موناكو وغيرها.

وتأسيس الإمارة بالريف زمن الخطابي لم يكن يفهم منه ما اصطلح عليه اليوم في القانون الدولي الحديث من اعتبار تأسيس نظام سياسي داخل دولة ما نوعا من الاستقلال الترابي؛ فقد بقي الخطابي ومعه نموذجه النهضوي تابعًا للبيعة السلطانية، إذ فتئ الخطابي يؤكد في جميع مراسلاته ومواقفه وتصريحاته على تبعيته الكاملة للمغرب وسلطانه؛ فالوضعية الحضارية التي آلى إليها المغرب واحتلال أراضيه وتكبيل سلطانه هو ما جعل الخطابي يعلن استقلاله عن الاحتلال الأجنبي، ورغبته المتواصلة في فك أسر السلطان من نظام الحماية المتسلط، يقول الخطابي في رسالته للمغاربة الآنفة الذكر: «أما جلالة سلطان مراكش، فإن سعى فيما نكد من أجله وقام بواجبه نحو الأمة الإسلامية ليتخلص من ربقة الحماية والاستعباد، فنحن أول مَنْ يؤيده ويعضده ويؤازره على حكم بلاده، ثم ليكن هذا في علم جميع إخواننا المراكشيين [أي المغاربة] حتى يحققوه، وخصوصًا أساطين المغرب وعماله، كما يجب إن كانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر، أن لا يعيروا التفاتًا لما يلقيه العدو من الخيلات التي تعود أن يسحر بها الفكر العام تشتيتا لكلمة المسلمين، ولتحققوا أيضًا أن ما نحارب من أجله ما فيه إلا سعادتكم وسعادة سلطانكم إن كان يود السعادة الحقيقية والمجد غير الموهوم[٨]».

وقد تحقق نظام الخطابي بالفعل بما أرساه من مؤسسات شملت مجالات متعددة ومتنوعة، كما أبدع في مخاطبة العالم بمفاهيمه بعد طرد الاحتلال عن أراضيه ودفعه إلى أقصى ما يمكن، ومن هنا يكمن إيراد مفهوم الجمهورية في بعض التعبيرات الخَطَّابية لأنها تعكس ظرفًا وواقعًا حاول فيه أن يخرج الريف من شرنقة التخلف ويخاطبه بما يفهمه ويستوعبه، وهو ما يؤكده الخطابي في تصريح منسوب له[٩] بجريدة المنار عندما قال: «كنا أنا وأخي [وهو الأمير امحمد الخطابي شقيقه الأصغر] أطلقنا على بلادنا اسم "جمهورية الريف" منذ سنة ١٩٢٣ وطبعنا في فاس أوراقًا للحكومة عليها هذا الاسم للدلالة على أننا دولة مؤلفة من قبائل مستقلة متحالفة لا دولة نيابية ذات برلمان منتخب، أما اسم الجمهورية فلم يكن ليتخذ معناه الحقيقي في نظرنا إلا بعد مدة من الزمن لأن جميع الشعوب تحتاج حين تأليفها إلى حكومة حازمة وسلطة قوية ونظام قومي متين[١٠]»، وهو ما لم تكن شروطه موجودة زمن الخطابي لعدة اعتبارات منها الوضع الحضاري والاجتماعي المترنح، والخصوصية الثقافية والسياسية للمغرب الذي يمتح مفاهيمه من مجموع الرصيد الشرعي والفكري للحضارة الإسلامية، ويؤكد ذلك لوارد بريس مراسل جريدة ديل ميل البريطانية بقوله: «إن الدين الإسلامي لا يعترف إلا بشكل واحد من الحكم، ألا وهو حكم الأمير، إن الحكم بمجالس تمثيلية يناقض المبادئ المحمدية، ومع ذلك فإن نظامنا ديمقراطي جدًا، لأن الأمير ينتخب بحرية من قبل رؤساء القبائل، ويمكن خلعه إذا لم يرض الناس، وانتخاب أمير آخر يحل مكانه، وكذلك فإن خلفه ينتخب بالاقتراع بعد وفاته[١١]».

وهكذا يجسد الخطابي وعيًا مبكرًا بالتطورات التي يعرفها العالم الحديث؛ فلم يكن ترويج الجمهورية الريفية في المحافل والمؤسسات الدولية سوى لاستدرار

العطف وعقد الاتفاقيات التي يمكن من خلالها امتلاك المقومات الذاتية لبناء الريف واستنهاضه، وقد أكد الخطابي على هذا في الكثير من تصريحاته وعلم أن هذا المفهوم الذي أخذ بعدا آخر مع تطور القانون الدولي واستغلال الأجانب لهذا المفهوم إنما ينم عن اختلاف الدلالة المصطلحية للقاموس السياسي بين الحضارة الأوروبية والحضارة الإسلامية؛ ففي حوار له مع الصحفي الأمريكي فنسنت شيين مراسل جريدة شيكاغو تريبيون الأمريكية يؤكد الخطابي له سنة ١٩٢٥ على هذا المعنى بقوله: «تسمية جمهورية الريف هي نموذج مؤسف للتسميات غير الموفقة، إن الصحف الإنجليزية هي التي أطلقت علينا هذه التسمية في البداية، وكذلك بعض عملائنا الإنجليز ذوي النوايا الحسنة، لكن لم تكن لدينا أبدًا جمهورية بالمعنى الغربي للكلمة، ولم نعتزم قط إقامة شيء من هذا القبيل[١٢]»، فلفظة الجمهورية المتداولة في السياق الأوروبي المتدثرة بمفاهيم التحولات السياسية والفكرية التي عرفتها أوروبا منذ عصر النهضة؛ والتي تتأسس على اختيار رئيس من قبل شعب على أرض سيادية بحدود ذات سيادة مستقلة لم تعرفها تجربة الخطابي الحضارية، ولم يكن هذا المفهوم ليغيب عن الخطابي الذي تداول اسم الجمهورية بمعنى آخر وهي الجماعات الصغيرة المنظمة داخل القبائل والتي كان يطلق عليها لفظ: "فوبليكا"، وهو يوضحه للصحفي شيين بقوله: «في الواقع، نستعمل الكلمة الإسبانية ريبوبليكا في لغتنا لنطلقها على مجموعات محلية صغيرة، بل إنها أصغر من القبيلة، تمامًا مثل المجالس العسكرية للضباط الإسبان juntas.

لدينا مثلاً عدة جمهوريات في كل سرية من المشاة الريفيين، ولا تعني كلمة الجمهورية بالنسبة لشعبنا أي شيء أكثر من ذلك[١٣]»، أما بالنسبة للمفهوم السيادي للجمهورية فلم يكن متداولا بمنطقة الريف المغربي ولم يسعى إليه الريفيون أثناء تشييد معالم نهضتهم وتثبيت شهودهم الحضاري، ما تداوله وشيوعه وروده في الكثير من الوثائق سوى ترويجًا من الأجانب والشركات الرأسمالية الذين تواردوا على الريف لعقد الصفقات واستغلال الثروات وإبرام الاتفاقيات بما يضمن لهم الربح بموجب ما تمكّنه تداول القضية الريفية من رصيد وامتيازات واحتكار، كما لا ينفي هذا وجود بعض الشخصيات التي وجدت في قيامة الخطابي وجهًا مشرقًا لحضارة في أفول مستمر، وما كان مفهوم الجمهورية سوى إطلاقًا لفظيًا على تلك التجربة ولم تكن بالتداول الأوربي.

ثالثًا: علاقة الريف بمؤسسة المخزن بين التوتر والاستقرار

لم تكد تمر حرب الريف وتنتهي سنة ١٩٢٦م حتى انطلقت أراجيف الاحتلال الأجنبي بكون الخطابي ينازع السلطان في حكمه، وأن ما قام به اتجاه إسبانيا وفرنسا ما هو إلا تمهيدًا لإسقاط المخزن، وهي من القضايا التي لم تنتهي أوارها لحد الساعة؛ إذ ما فتئت الكثير من الجهات ترددها بين الفينة والأخرى، والقصد من ذلك ممالئة السلطة على تجربة الخطابي النهضوية التي شعّ نورها بين الشعوب والأمم المستضعفة، لتعتبر إحدى التجارب الرائدة في القرن العشرين في نيل الحقوق المهضومة من كافة أشكال الاستعمار، وإلا فإن للخطابي صلة وصل منذ شبابه مع مؤسسة المخزن التي بدت ضعيفة ومترهلة حين أدرك وهو شابًا مدى الفساد الذي ينخر أركانها، فعمل جاهدا على الحيلولة دون السقوط المدوي في براثين الأجانب؛ وذلك عندما قام بمعية والده بأخذ البيعة للسلطان عبد الحفيظ في ربوع الريف بعد البيعة المشروطة ظنا منهم أن ذلك عهد سيقود إلى إصلاح ما فسد من أمور المغرب المتهاوي، وهو الأمر الذي يتحقق منه شيء.

ومع فرض الحماية على المغرب سنة ١٩١٢ والسقوط الرمزي لمؤسسة المخزن التي لم يعد لها من دور سوى تبعيتها لما تمليه فرنسا والاقتصار على التواقيع التي يفوضها السلطان لفرنسا بموجب ما تمليه وثيقة الحماية، لذا عمل الخطابي قصارى جهده لتحسيس السلطان وحاشيته بكافة السبل والوسائل من خطورة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمغرب وتخليصه من وضع الأسير الذي أضحى عليه، ولم يتوانى الخطابي في بعث الوفود التي تؤكد على الصلة الوثيقة التي تجمع منطقة الريف بالمخزن عبر تاريخه؛

وقد أكّد على هذه الصلة التاريخية محمد أزرقان في مذكراته وهو أحد الرجال المقربين من الخطابي الذين كانت له أدوار قيادية أثناء حرب التحرير بقوله: «كانت الملوك العلويون ينظرون إلى الريف بعيون الإجلال من قديم، لكون الريف في نظرهم السياسي محل رباط المجاهدين المدافعين عن حمى الإيالة الشريفة من ناحيته[١٤]»، ليستمر هذا الحال إلى زمن الخطابي الذي أكد في الكثير من المواقف والرسائل عن تشبثه بالبيعة الشرعية للسلطان وما تقتضيه من التزامات وواجبات، وعلى رأسها رفض الاحتلال وأزلامه.

فقد بادر الخطابي فور انتصارات أنوال سنة ١٩٢١ إلى تبليغ السلطان عن طريق وفد مكون من أبرز القادة الريفيين إلى مدينة الرباط لتبليغ الشيخ أبي شعيب الدكالي بالقول: «أن صنيعنا الجهادي حيال الإسبان المتعصبين، هو مجرد دفاع عن الشرف المهان، المتمثل في التطاول الإسباني على الدولة المغربية الشريفة، وكذلك أن يبلغه مساندتنا له في السراء والضراء، بكل ما أوتينا من قوة، وإلى أن يصبح سلطاننا ينعم بحرية التصرف ومباشرة مهامه، ونرجوه كذلك أن يكون حذرًا مما تشيعه الأبواق الاستعمارية ومن يسير في فلكهم، من أننا ضد بيعته في ربوع المغرب، وليكن واثقا مما نقول كل الثقة[١٥]»، ولعل أفضل ما يجسد وضعية المخزن في حينه هو الرد الذي تلقاه الخطابي من أبي شعيب الدكالي للوفد الذي تم إرساله للتبليغ عن الانتصارات المحققة بقوله: «عودوا إلى إخوانكم، وقولوا لهم، لا تلقوا بالاً لهذه الناحية، فالسلطان في الظرف الحالي لا يقوى على جلب نفع ما، أو دفع ضرر كيفما كان، ولعلكم لا تحتاجون إلى أكثر من هذه الوصية، والله لا يخيب مسعاكم الحميد، والسلام[١٦]»، ولا شك أن هذا التصريحات تجسد الوضع السياسي العام، وتكشف عن العجز التام الذي أضحى عليه وضع السلطان ومدى الخذلان الذي كان يتعرض له بعد أن انصاعت الكثير من النخب للاستعمار الأجنبي.

ولعّل الصورة التي ينقلها السيد محمادي الحاتمي عن أحد جلساء السلطان يوسف وهو عمر التازي عن لحظة الإبعاد التي تعرض لها الخطابي سنة ١٩٢٦ جراء الاستسلام المشروط بسلامة أهل المنطقة من الإبادة الجماعية التي انطلقت بالغازات السامة والأسلحة الكيماوية من طرف فرنسا وإسبانيا تُبين الأسف الذي أبداه السلطان اتجاه الخطابي لمّا قررت فرنسا إبعاده نحو جزيرة لارينيون؛ فيقول: «دخل الترجمان ماركو على المولى يوسف وقال له: "سيدي لقد جئتك ببشرى"، سأله السلطان: "ما هي؟" أجابه: "إن عدوك عبد الكريم تقرر إبعاده إلى جزيرة الريونيون" سأله السلطان: "أين تقع هذه الرونية؟" "إنها بعد مدغشقر بأيام، ومدة السفر من الدار البيضاء لا تقل عن شهر وبضعة أيام"، خرج الترجمان وقد أحس بامتعاض المولى يوسف للنبأ، واغرورقت عيناه بالدموع، إلى أن قال لعبابو: [وهو أحد الفقهاء الذين كانوا يجالسون السلطان] "إنهم بهذا الإجراء أرادوا قتله"، وأضاف قائلاً: "لله درك يا بن عبد الكريم، أنت شرفت الإسلام وأعلنت عن حسن مآل[١٧]»».

ويذكر الخطابي أثناء مقامه بالقاهرة بعض المواقف أبنائهحفظها للسلطان أثناء قيادته لحرب التحرير ضد فرنسا؛ فيحكي عبد السلام الهراس عن الخطابي عند زيارته له بمصر ما حكاه له: «قد استغل الاستعمار فصار يروج ويزور ويدس ويشيع أننا طلاب ملك، وأننا سنكون جمهورية إلى غير ذلك من مكر الليل والنهار، وحرضوا علينا بعض الزوايا القواد، والبوادي وكانوا يضغطون على مولاي يوسف الذي كان يكرههم فيخرجونه إلى المحلات والعساكر المغربية التي تحاربنا تحت قيادة فرنسا ويظهرونه للقبائل من بعيد ليوهموها أن السلطان جاء ليؤيد محاربة المجاهدين، وقد أخبرني غير واحد مما يوثق بهم أن مولاي يوسف كانت تدمع عيناه وهو في باب الخيمة، كما كنا نحن نرسل إليه أننا معه وضدا على النصارى[١٨]»، ويضيف الخطابي: «ومما يدل على أن مولاي يوسف كان له عطف علينا أنه عندما استسلمنا للفرنسيين ونقلونا إلى فاس ريثما ينفنونا إلى لارينيون مررنا راجلين ببعض الأزقة الفاسية، وإذا بشخص يقترب مني ويجذبني بلطف من قب جبابتي، ويقول لي: سيدنا يسلم عليك ويقول لك إنه لا ينساك أبدا[١٩]»، إلا أن القوى الاستعمارية أبت سوى أن تمعن في تشويه هذه الصورة، فأضحى الخطابي الذي عمل على طرد المستعمر من البلاد هو المشكل بدل الاستعمار الذي استحوذ على البلاد ومقدراتها وراح هو من ينزع عن

أبناءه انتماءهم الوطني ونعتهم بالفتان كما فعلن فرنسا عندما أطلقت في صحفها ومنتدياتها من كون السلطان طلب من فرنسا أن تتولى محاربة الخطابي والقضاء على تجربته، فليس من الغريب أن تنهج الدوائر الاستعمارية كل الأساليب والسبل لتشويه من يحاربونها ويقضون مضجعها ويقفون صدا ضد تقويض المغرب، بعد احتفى سجلّها بجرائم يندى لها جبين الإنسانية ضد المغاربة وباقي مستعمراتها.

خَاتِمَةٌ

لقد استطاعت القراءة الضيقة لمختلف المحطات التاريخية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي التي تبنتها بعض الجهات الهوياتية واليسارية والإسلامية أن تلصق مواقف الخطابي لجلبابها الأيديولوجي، وهو مما تم توظيفه من بعض الجهات النافذة، وقد تبين مما سبق تهافت هذه المواقف التي اتخذها هؤلاء، لأن جرد هذه المواقف من سياقها التاريخي وظرفها الزماني والمكاني قد يعطي بعض الإقرار بها، وبقي مشروع الخطابي أمامه مجرد مواقف سياسية لا ترقى لما طمح إليه وعمل طيلة مسيرته، وهو ما يفرض الحاجة إلى إعادة النظر في الكثير من الأطروحات التي يتم تسويقها عن الخطابي التي قد تنعكس سلبًا على الواقع المعيش لما لهذه الشخصية من حمولة رمزية وتاريخية لأهالي منطقة الريف.

وأمام كل هذا لابد من تأكيد أن الإنتاج الفكري للخطابي المثبت في مجموعة من الدروس والمذكرات والحوارات والرسائل والمقالات والتصريحات والمقدمات غنيًا بما يكفي لاستنباط معالم المشروع النهضوي الذي جسده على أرض الريف بمقوماته وأفكاره وتصوراته وآراءه التي أكد عليها بعيدًا عن ظرف الزمان والمكان، بل بقيت معه حتى في منفاه في جزيرة لارينيون ليعاود الكرَّة من جديد في القاهرة بنفس الرؤية مع تطويرها وفق ما تقتضيه الظروف.

الإحالات المرجعية:

(١) "تاريخ تطوان"، محمد داود، مراجعة وإضافات حسناء محمد داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط١، ٢٠٠٩، مجلد ١١، ص٢٤٧.
(٢) "المغرب المجهول، اكتشاف الريف"، أوجيست موليبراس، ترجمة عز الدين الخطابي، مطبعة الحمامة، تطوان، ط٢، ٢٠٢١، ص٦٢.
(٣) "إيقوين قبيلة من الريف المغربي"، أنخيلو كيريلي، ترجمة عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الرباط، ط٢، ٢٠١٧، ص١٢٣.
(٤) "تاريخ تطوان"، محمد داود، ج١١، ص٢٤٧.
(٥) "مذكرات لاريونيون"، محمد بن عبد الكريم الخطابي، تحقيق وتعليق وتقديم عبد المجيد عزوزي ومحمد أونيا وعبد الحميد الرايس وجمال أمزيان، دار أبي رقراق، الرباط، ط١، ٢٠١٧، ص١٢٨.
(٦) "نصوص ورسائل حول الثورة الريفية ١٩٢٤-١٩٢٥"، ليوطي الإفريقي، عرض وتقديم بيير ليوطي، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١٣، ص٦.
(٧) "محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال"، ماريا روسا ذي مادارياكا، ترجمة وتقديم محمد أونيا وعبد المجيد عزوزي وعبد الحميد الرايس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٣، ص١٣.
(٨) "تاريخ تطوان"، محمد داود، ج١١، ص٢٤٧ -٢٤٨.
(٩) نقلت مجلة المنار هذا التصريح عن جريدة الشورى التونسية التي نشرته يوم ٧ أكتوبر ١٩٢٦ بعنوان:"عبرة وذكرى للشرق والشرقيين، بطل الريف يبسط خطته وآماله، ويصف أسباب فشله واستسلامه"، لتعاود المنار نشره بعنوان آخر يوم 5 نونبر 1926، بينما كان استسلام الخطابي يوم ٢٧ ماي ١٩٢٦؛ فكيف حصلت جريدة الشورى والمنار على هذا التصريح، إذ أنه لم يثبت عن الخطابي مراسلة المنار ولا الشورى ممّا يرجح نقل الشورى لتصريحات الخطابي من مجموع الصحف الأجنبية التي كانت تتولى نشر أخبار الخطابي مع تحوير ذلك.
(١٠) مقال: "جهل زعماء المسلمين ومفاسد أهل الطرق والشرفاء وكونهما سببا لفشل زعيم الريف المغربي"، مجلة المنار، مصر، ٥ نونبر ١٩٢٦، الجزء٨، المجلد ٢٧، ص٦٣١.
(١١) "الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، ملحمة المقاومة الثورية المسلحة في الشمال"، روبرت فورنو، ترجمة فؤاد أيوب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط2، ص104.
(١٢) "أمريكي بين الريفيين، رحلة مراسل شيكاغو تريبيون في شمال المغرب ١٩٢٥"، فنسنت شيين، ترجمة وتقديم وتعليق محمد الداودي، مطبعة الحمامة، تطوان، ط1، ٢٠٢٢، ص١٩٨.
(١٣) "أمريكي بين الريفيين"، فنسنت شيين، ص١٩٨.
(١٤) "الظل الوريف في محاربة الريف"، أحمد سكيرج، إعداد ومراجعة عبد المجيد عزوزي، سليكي أخوين، طنجة، ط١، ٢٠٢٢، ص٢٠.
(١٥) "شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي"، محمد الرايس، تقديم عبد الحميد الرايس، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١١، ص٣٧٣.
(١٦) "شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي"، محمد الرايس، ص٣٧٤.
(١٧) "شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي"، محمد الرايس، ص٣٨٤.
(١٨) مقال: "هل كان المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي يسعى إلى تأسيس جمهورية في الريف"، عبد السلام الهراس، جريدة التجديد، العدد ٦٣، ذو الحجة ١٤٢٠هـ الموافق ٥ أبريل ٢٠٠٠.
(١٩) مقال: "هل كان المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي يسعى إلى تأسيس جمهورية في الريف"، عبد السلام الهراس.